

المصاحف

١٣١٥

يوم السبت ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ الموافق ٣ يونيو سنة ١٨٩٩

استنهاض هم

(٥)

ولنعد بك الى الحجة الصليبية وذكر السب الذي كان عاملا في اخفاقها .
 قيص الله للاسلام في ذلك العهد رجلين نبيلين أوولين مقربين بل ملكين
 سماويين هبطا الى العوالم السفلية وتجلبيا بجلباب البشرية وسميا بنور الدين
 وصالح الدين . يقولون لكل اسم من سماه نصيب وما أظهر انطباق قولهم
 هذا على الرجلين . فلقد كان الاول نورا انسلخت باشعته ظلمات الظلم
 واستبان بوميضه مبيع العدالة والحكم وكان الثاني صلاحا لامته وعمادا
 وجودها وملاك راحتها وقوام مساداتها . لم يك الرجلان من صميم العرب
 ولا من سروات عدنان ولا من بيوتات قريش ولا من معادن الخلافة
 فان أحدهما تركي والآخر كردي لكنهما وصلا في استجماع المزايا الانسانية
 واستتمام الكمالات البشرية الى مرتبة هي أقصى ما يتاح لغير الانبياء والمرسلين
 وبلغنا من التزام حدود الشرع والاستمسك بعروة الدين وانتهاج منهج
 السلف الصالح مبلغا لم يبلغه بعد الخلفاء الراشدين أحد غيرهما . هذا ما حمل

بعض نقاد المؤرخين على ادماجها في مصاف الخلفاء الراشدين وطى اسمها في سجل أسلمتهم وحق ما فعله دين وعلم وعفة ونجدة ونخوة وبسالة وحزم ودهاء وبصارة وحماية وزهادة ورأفة وتواضع وهل يعوز الخلافة الراشدة غير هذه الخلال . أليس نور الدين هو الذي كان يتبحث عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ويتقصى شؤونه كلها ليقندي بها ويهتدي بهديها ؟ أليس هو الذي كان يخاطر بنفسه في الدفاع عن بيضة الاسلام وحوزة الامة فقال له بعض عظماء دولته (الله الله في نفسك يا مولاي ارفق بها ولا ترض المسلمين بعدها للخطر) فغضب من مقالته وقال (من يكون محمود يعني نفسه) حتى توقف سلامة المسلمين عليه ان للمسلمين رباً يتولى حفظهم وكلاءهم) الله اكبر هذا القول من نور الدين جدير بان يتخذ قانونا في معاملة الملوك لامهم فلا يرون لانفسهم عليهم فضلا ولا منة فضلا عن استدراجهم في العبودية وامتهانهم بسلب ارادتهم واختيارهم وامانة نفوسهم وهضم حقوقهم وحرمانهم من واجباتهم بل انزالهم منزلة البهائم تعدو وتروح في حاجات اصحابها ولا ينالها من سعيها الا بعض الملف يلجوه به كرشيا .

أما صلاح الدين فكان آية من آيات الاسلام في القرون الوسطى . كان جامعا بين شهامة الملوك وعظمة السلاطين وبين دعة اژهاد وسكينة النساك . شؤونه في ادارة بلاده الداخلية وفي سياستها الخارجية واعماله في ابان السلم وأوقات الحرب ومما ملته للعدو في كلتا الحالتين - كل ذلك او دون كان خير نظام للدول واحسن قانون تحذو على مثاله الشعوب والامم . لو مرضت وقائع هذا البطل واعماله واطواره واقواله على ما اخترعته اوربا ودسته حقوق الدول لكنت منطبقة عليه بل ربما كانت على وضع اقرب الى طبائع

الناس وأضمن مصالحهم وأوفق لنوايس الاجتماع البشري واكفل لانتظامه
وقد كان رحمه الله كريم الاخلاق حبيب النفس واقفاً عند حدود الشرع مع
مناهديه وأهل ذمته يبذل لهم في حالة السلم والهدون من العدل والمساواة
بينهم وبين غيرهم والرحمة والرفق بهم وحن المعاشرة والمجانلة معهم
مالا يطمعون به امان الحرب وساعة الطمن والضرب ويريهم بعد انسلاخ
الهدنة ومضي مدة العهد من الصلابة والحمس الديني والشدة والغلظة
مالا يتخيلونه فيه وقت السلم ولا يستشرونه منه في سويغات الانس
والمباسطة . بينما هو نور بسيط يبهج النفس ويلذ المشاعر في وقت السلم اذا
هو في الحرب شرارة كهربائية وضاعمة جوية تقتنص الآجال . وتذك
راسيات الجبال . نسيم لطيف ينعش الحواس ويفرح القلب فما اسرع ما يتحول
الى اعصار فيه نار تنسف الابراج والحصون وينزل بمن لحقه ريب المنون
ماء زلال سائغ للشاربين حتى اذا استصرخته الحرب عاد سيلاً أتياً (غريباً)
يقتلع ما يمر عليه ويجرف ما اعترض في سبيله . هكذا فليكن الرجل المسلم
هكذا امرنا ان نكون . هكذا كان شأن الامة في الصدر الاول . محاسنة
ملائكية في وقت السلم مخاشنة غضنفرية في وقت الحرب . بهذا امتدرواق
الذين على رؤس الامم . بهذا خضعت الرقاب لتعاليم الاسلام . بهذا تقبلت
الناس دين الله ودخلوا فيه افواجاً افواجاً

وكان صلاح الدين نور الله مرقدته غيوراً على مصالح امته ولو عا برفع
شأنها مقبلاً بشرائره (بكليته) على حمايتها والذود عنها . الا امرني اصفائك
وتسمع من نجدة هذا الرجل وبعده همته وكبر نفسه . ايجدث لك عجباً وتهتر
نفسك له طرباًء لما كانت تضع الحرب العوان اوزارها بين المسلمين والصليبين

وتهدان الطائفتان ويتعاجز العسكران كان صلاح الدين يأذن لجوده
وابطاله ان ينقلوا الى منازلهم ويقضوا لباتهم من لقياء اهلهم ومناغاة اطفالهم
وما تظنه فاعلا هو؛ ما كان يناغي وبياعم (١) ويلهو وينادم بل كان يعمد الى
هضبة مشرفة على حدود المدو فينصب عليها خيمته ويرتبط بجانبها قرسه
ويركز على بابها رمحه ويعلق فيها شكته (٢) ويرفع فوقها رايته ويثبت هناك
في نفر من مماليكه وبطائته طول مدة الهدون والتارككة لتلاعب بخيمته
الرياح المتناوحة، وتهطل عابها السحب الغادية الرثمة، كل ذلك ليكون متبوءاً
بثابة مسلحة (٣) للمسلمين تدرأ عنهم الطواريء، وهو فيها كريئة (٤) وعين
تحرسهم من العدو المفاجيء . ياسبحان الله ! ما شد كلف هذا الرجل بئذ
ماوجب عليه . وما انشطه للقيام بحماية مااسند من أمر الامة اليه . اما والله
لو كان في الاسلام منقبة فوق الخلافة الراشدة لو جبت لهذا البطل وكان
احق بها واهلها . لم نضن على الرجل بهذه المفخرة الجليلة وهو قد سمي اليها
سميها ؟ لم لانشيد بذكره وننوه باسمه على تماقب الايام والسنين ؟ لم
لا يحفظ لنا تاريخنا شأته ويوفيه حقه من الاطراء والثناء والشكر ؟ وحق
الانصاف لو كان هذا البطل في أمة اليونان القديمة لجذبوا بضبعه الى مصاف
الآلهة وبوؤا تمثاله ارفع مكان في (پانتيون) (٥) استغفرالله ان هذا
الاعراق في القول والتنطع في الوصف والتفنن في الالاقاب انما بعثه في نفوسنا

(١) باغمها حادها بصوت رخيم (٢) شكته سلاحه وعدة حربه (٣) الملححة موضع
تمكث فيه المقاتلة ويلتقون فيه اسلحتهم خوفاً مباعثة العدو (٤) اريئة العين يربأ العدو ويراقبه
(٥) لفظ كان يطلقه اليونان على المعبد الجامع لآلهتهم وربما يقابله عند العرب لفظ
الزون بضم الزاي قال في القاموس (الزون موضع تجمع فيه الاصنام وتصب وتزين)

وهاجه في خواطرنا وحرك به السنتنا واقلامنا ما رآه لهذا العهد في امراء المسلمين
 وملوكهم من التفريط في شؤون اممهم والتسوا كل في العمل للشممهم
 والا فالرجل لم يأت بيدع ولم يعمل عجباً ولم يفعل ما فعل عن تبرع وتطوع
 ولم يلزم نفسه بمزاولة ما وراء المطلوب منه ولم يكلفها غير ما انتقضاء الذمة اياه
 فهو انما اتى بالواجب عليه لامته وقضى حقاً لها وقام بما تستوجبه بيعتها فان
 للامة على خليفتها حقوقاً وواجبات كما له عليها طاعة واناوات وهذا لم يكن
 بالشيء المجهول بين اهل الاسلام حتى عند عجائزهم . ألم يبلغك قصة تلك
 المعجوزة مع الخليفة الثاني ؛ حكي ان عمر رضي الله عنه كان يس حول المدينة
 فمر في تطوافه على خباء سمع فيه دندنة فتسمع فاذا بمعجوزة في صبية يتضاغون
 (ينصايحون) من الجوع وهي تلهمهم وتعلمهم بقدر وضعتها على النار وجعلت
 فيها ماء وألقت فيه حصيات فجعل الاولاد كلما سمعوا ازيز القدر هداوا
 وهو ما فلامها عمر وقال لم لم تأت الخليفة وتأخذي من مال بيت المسلمين
 ما به كفايتك وكفاية اطفالك فرفمت اليه بصرها وقالت له كالتعجبة على
 اي شيء بايمناه اذا لم يتفقد حاجتنا وينعهد ذوي الفاقة منا بما يسد عوزهم
 ثم ذهب عمر الى بيت المال واحتمل لهم بنفسه طعاماً وطلب من المعجوزة ان
 تجعله في حل من هذه التبعة وكتب بذلك قطا اوصاهم ان يدسوه في مطاوي
 اكفانه . كل ذلك منه خشية ان يلقي الله وفي الامة التي بايعته عجوز تدعي
 انه لم يف بحقوق البيعة . هذه هي الخلافة في الاسلام . هذه هي واجبات
 الخلافة المقدسة . هذا هو الخليفة الذي يخشى ان تلحقه تبعة ولو من احدى
 عجائز رعيتة . هذه هي الامة التي تطالب بحقوقها . هذه هي الامة التي خالط
 حب الحرية لحمها ودمها . هذه هي الامة التي يعرف كل فرد من افرادها

حتى العجائز ما هو له وعليه . هذه المبادئ الشريفة سادت تلك الامة على
من ناوأها . هذه المبادئ الشريفة غمرت آداب تلك الامة وتعاليمها
سائر الآداب والتعاليم

لاريب ان الذكي الالهي قد فهم مما ذكرناه عن نور الدين وصلاح
الدين ان البلاد الشاميه لمهدما كان فيها روح يمكنها به جيد غارات الحملة
الصليبية وقل غربها لكن بقي من شؤون تلك البلاد حيثند شأن هو منها
تمزلة الاعصاب من الجسم الحيواني او نسبة الشؤون الى ذلك الشأن نسبة
العين الى بؤبؤها الذي تجتمع فيه الاشعة ويتوحد متعددتها فتبصر العين
المرييات . ذلك الشأن هو الوفاق والوحدة ليس ذاك بين الملكين المذكورين
فقط بل بين نصيف الامرء والقواد والابطال ومساعرهاتيك الحروب . ومما
يسر السامع ويزيد من تلجه واستبشاره انه لم يكن تجاه الحملة الصليبية خليفتان
كخلفتي غرناطه المشؤومة بل كانت الزعامة الكبرى والسلطة العظمى في يد
نور الدين والكل خاضعون له عارفون حقه واقفون انفسهم على شد ازره
وموازته حتى اذا استأثر الله به وزفت الملائكة روحه المباركة الى حيث
تسرح ارواح المقربين قام بمداه بالامر صلاح الدين خير قيام وساور وحده
جميع ملوك الافرنج ومارس اقيالهم وعلو جههم ودافع عن الوطن دفاعاً قانونياً
عرفه له الغربيون قبل الشرقيين ولم تزل تلجج به السنة الافرنج على اختلاف
الامة والدين

اتفاق امراء الشرق حينئذ والتنام اهوائهم هو الذي سدد سهامهم في
نحر العدو ومكن عواليهم من مقاتله . نظروا رحمهم الله في سورة تلك الحملة
وشدة بأسها وخطيان مداه وحدة تدمرها (تقيظها) فقابلوها من بأسهم بأشده

ومن طغيان همهم وحدثها بأطفي وأحد. علموا ان منبة التفريط في صدها
وخيمة وعاقبة التخاذل عن تلافيا مشؤومة فتأمروا وتذامروا (١) وأرهفوا
أشفار العزائم ووطنوا النفوس على استعذاب الموت الكريم أو استرد عليهم
بلادهم ويخلص اليهم استقلالهم. لاجرم انهم لو قصروا حينئذ في مدافعة
العدو عن هذه البلاد وتقاعدوا عن تحريرها من استرقاقه وانتياشها من فح
سلطته لما علم احد غير الله ماذا كانت حالة الشعوب الاسلامية الآن ليست
الشعوب المتوطنة في فينيقية وفلسطين فقط بل كل الشعوب المنتشرة على سواحل
البحر المتوسط وسوريا و بين النهرين وجزيرة العرب فان ثمانية قرون كفاية
لضعفة دين ومحو تعاليم وتغيير لغات وتبديل عادات. فالذي حفظ علينا
ديننا وتعاليمنا وانتنا وعاداتنا منذ ثمانية قرون الى الآن هو تلك الشرذمة التي
كان يقودها البطل صلاح الدين. تلك الشرذمة العربية التي اصطدمت بتلك
الزخوف الاعجمية فاركسها وجملت عاليها سافلها وأبلى في مصابرتها بلاه حسنا .
تلك الشرذمة التي تقحمت ذلك البحر الحضم وعرضت نفسها للهالك فيه او تتشل
من لوجه الاسلام ومن يدين به الى ابد الابد خشية امحائه من لوح الوجود
وتجلبجه في أعماق العدم حيث تخنط نفيته بززمة (٢) مادي وأشور وبابل
والكلدان والرومان. تلك الشرذمة التي اعترضت ذلك السيل المحدث بنية وقاتنا
نحن الذين ادركتنا اوائل هذا السيل ولما تنق بمعد على كيفية سكره (٣)
او تحو به عن دراجه (٤) . وأعجبا : شرذمة تعمل مالا تقدر مئات من
الملايين ان تعمله لاجرم أما ان تكون هذه الشرذمة ارتقت عن أفق الانسانية الى عالم
سماوي اعلى او تكون الملايين انحطت عن أفقها الانساني الى أفق البهائم والمعجوات

(١) تدامروا وتحاضوا على القتال (٢) النغية الصوت اللطيف والزمزمة رطانة العلو

على الطعام التي لا تفهم (٢) سكره سده (٤) دراجه مجراه

ترى ماهو قدر استبشار العالم الاسلامي باتفاق هذه الشريعة ونجدة
 أبطالها؛ ماذا كان وقع هملهم الشريف بين العوالم السماوية وكيف كانت مظاهر
 التهانى بهم في ملا الحظائر القدسية . لو ترى كيف كانت تتناغى حور الجنان بأحاديث
 أولئك الأبطال كيف كانت تتغنى بذكر وقائهم ومجيد غاراتهم . كيف
 كانت أولئك العذارى تلمسح برشيع عرقهم وتتنافس بطيبه كيف كانت
 تتخطف رشاش دم شهدائهم وتتضمنج بمسكه وتزين بخضابه بل لو سمعت
 الى برازخ أرواح اجدادهم لسمعت عجبا . تسمع لاصوات الابتهاج والبشرى
 طيننا وصدى في جو ذلك العالم المهيب . تسمع ضجيج الفرح يترجرج فوق
 تلك الجماهير النيرة اللطيفة . ترى ارواح الآباء تستنشق روائح أولئك الابناء
 وتتشبى برياها تشوقا وسرورا . ترى تلك الارواح تسرح عصاب عصاب
 في فضاء ذلك العالم وتزاور وتباهي بصنيع خلائفها وبرهم بوالديهم . ترى
 تلك الارواح ترفرف اسرابا اسرابا ولها حفيف حول شجرة طوبى والبيت
 المعمور تستنزل الرحمة الآلهية لأولئك الأبطال وتناجى الحق برضاها وتسال
 رضاه عنهم وتجار اليه بالدعاء وطلب الففر لهم أزاء ايامهم المأثورة وجزاء
 مساعيتهم المشكورة والله لا يضيع أجر المحسنين

واختزال الكلام في هذا المقام ان العامل في خيبة الحملة الصليبية هو اتفاق
 امراء ذلك العهد ونجدهم وعدلهم ومحاسنهم للسلف في اعمالهم واحتدائهم
 مثال الصدر الاول في اطوارهم فكل ذلك حبيبهم الى قبيلهم ومنهم غائنة ثورته
 واذى نأرتة ودفع بذلك القبيل الى الاستماتة مع امرائه في سبيل حماية الوطن
 وصيانة الشرف علما بأن التقاعد عن الدفاع مصيره تفقد الجنسية واللغة
 والدين وفي ذلك الشقاء والذل والحزى ابد الأبد